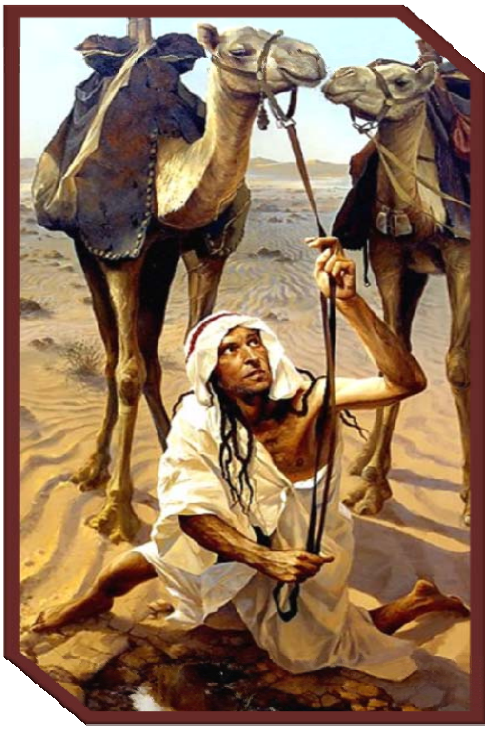

الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط مراكز المسالك الصحراوية أنموذجًا

عبد الرحمن بلاغ

أستاذ تاريخ وحضارة المغرب الأوسط
كلية الأدب العربي واللغات والعلوم الاجتماعية
جامعة بشار – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الرحمن بلاغ، الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل في المغرب الأوسط: مراكز المسالك الصحراوية أنموذجًا.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والعشرون؛ يونيو ٢٠١٤. ص ١٠٨ – ١١٣.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

إن تموضع قرى واحات الصحراء، على المسالك التجارية، بين سواحل المغرب الأوسط والسودان الغربي، جعل منها مركز عبور وتموين بالسلع، ومجالاً يسهر على خدمة الركبان والدواب. هذه المكانة الجغرافية، للواحات والقرى الصحراوية في المغرب الأوسط، أعطتها مضمونًا اقتصاديًا واجتماعيًا، حيث نشطت بها الحرف اليدوية، وبعض الخدمات المرتبطة بحركة القوافل، المترددة بين السواحل والدواخل. فالمكاسب كانت متبادلة بين ساكنة تلك المواضع والقوافل التجارية. تبعًا لذلك شهدت المسالك الصحراوية في المغرب الأوسط، نشأة وتطور عدد من القرى والمدن، ارتبطت وظيفتها الاقتصادية والمالية بما توفره للقوافل من خدمات وسلع.

مُقَدِّمَة

إن تفكيك الحرف والمهن المرافقة للقافلة، يتطلب جهدًا علميًا وصناعة تاريخية، تمكن الباحث من فرز مكونات القافلة، وصولاً إلى تشخيص الأنشطة المرافقة لها، أو بعبارة أصح الدولاب المحرك لعجلاتها، كما أن المراكز أو محطات التزود الصحراوية، نشأت وتطورت بحكم موقعها وفق ثنائية موارد المياه، ومسارات حركة القوافل. نستطيع أن نفهم حركية هذه المراكز الاقتصادية والمالية، بالنظر إلى محتويات أسواقها، وتقاليد ساكنتها، فوظيفتها اقتصادية وحضارية بالنسبة للقوافل، حتى أننا نجد قرى ومدنًا هجرت، أو فقدت مكانتها مثل سجلماسة، بفعل تحول الطريق التجاري عنها إلى وجهات أخرى، فالمكاسب والمنافع متبادلة بين القافلة المتنقلة والمراكز الثابتة، بفضل ما توفره الحرف والمهن للطرفين، فمن المراكز تتغذى القافلة، وبها تستريح الدواب والركبان، وفيها يلتقي التجار بالصلحاء والعلماء.

إن اختيار هذا الموضوع وبهذا الطرح، دفعني له الحديث المتواتر عن القوافل التجارية ومسالكها سيما الصحراوية، سواء في كتب الجغرافيين والرحالة والباحثين، وهو في الغالب توصيف للركب ومساراته ومزاراته وأسواقه، والقارئ لها يجد صعوبة، في استيعاب مقدرة القافلة التي تنطلق مثلاً من تلمسان، حتى تصل إلى تمبكتو عبر الفيافي والقفار، أو من قرى واد جير، حتى تصل إلى فزان وأكدز وغيرها، ومرد هذا الاستغراب في تقديري، يعود إلى جهل القارئ بتكوين القافلة من جهة، وما توفره المحطات والمراكز من دعم لوجيستي، لها من جهة ثانية، والتي بدونها يفتقد التواصل بين سواحل ودواخل المغرب الأوسط.

وعليه الإشكالية المراد معالجتها في هذه المداخلة تتمثل في مدى مساهمة الأنشطة الحرفية والمهنية في تطور مراكز المسالك الصحراوية؟ وهل من علاقة تجعل الحرف والمهن الممارسة بقرى الصحراء مرتبطة بالقوافل التجارية والحجية؟ وسأعالج الإشكالية المطروحة من ثلاث عناصر رئيسة: بدءً بالمقاطع الصحراوية لمسالك ومفاوز المغرب الأوسط، ثم النشاطات الممارسة في المراكز

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الصحراوية، وأخيرًا علاقة الحرف والمهن بتطور المراكز الصحراوية في المغرب الأوسط.

(١) إشكالات المجال الصحراوي

في الغالب تحتل الكتابات التاريخية عن المراكز الشمالية للمغرب الأوسط مكانة متقدمة جدًا، مقارنةً بما دون علميًا عن ضفاف الصحراء ومراكزها الواحية، رغم أن الصحراء تمثل ثلثي مساحة المنطقة، علمًا بأن ازدهار المراكز الشمالية قائم نسبة كبيرة على ما قدمته السواحل الرملية من خدمات لتجار الذهب والملح والعبيد، إذ يعتبر السودان الغربي منذ القرن (٢هـ/٨م)، وحتى اكتشاف أمريكا، المصدر الرئيس لتمويل العالم بالذهب حسب "ميوني".[١]

لم تكن صحراء المغرب الأوسط، خلال التاريخ حاجزًا في وجه التواصل الحضاري الفعال بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب، خاصةً مع انتشار الاسلام بواحات صحراء المغرب الوسط وبلاد السودان الغربي، إذ يشير كل من العروي ولومباردو حسب الباحث زنيبر، أن الاتصال التجاري في إفريقيا السوداء لم يتم إلا في عهد الاسلام وعلى يد المسلمين، ويستبعد البعض أن يكون القدماء عرفوا الصحراء جنوب توات أو فزان، وأن المعرفة لم تقر إلا مع العرب المسلمين.[٢]

في حين هناك دراسات أخرى، منها ما جاء في كتاب "البرتغاليون في غرب إفريقيا"، من أن جنوب الصحراء الكبرى كان مطروقًا منذ الفترة القديمة، حيث كان ضمن مجال نفوذ الرومان، إذ تمكن القائد الروماني سبتيموس فلاكوس (Septimus Flacus)، من قيادة حملة عسكرية وصلت إلى حدود بلاد السودان، مستخدمًا في ذلك الجمل حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد،[٣] إذ شكل بداية استخدامه نقلة نوعية في النقل والتنقل عبر القفار، مع ما يمتاز به من مؤهلات متلائمة مع الطبيعة الصحراوية، في تنشيط التجارة بين الشمال والجنوب، كما ساعد على هجرة البربر من الشمال إلى الجنوب،[٤] خاصةً زناتة.

رغم الصعوبات التي يطرحها المجال الصحراوي، مناخيًا وتضاريسيًا وأمنيًا، مع ما في البعد بين المراكز من تحمل للجوع والعطش، لم يتوقف ارتياد الصحراء وتعميرها، لاعتبارات روحية واقتصادية وحضارية، لذلك تماهت هذه الصعوبات في النتائج والأرباح العظيمة المترتبة على اجتياز الصحراء، وفي كل الاتجاهات، وعليه لا يمكن الحديث عن عزلة جغرافية بالنسبة للمناطق الصحراوية، كما تحدثت عن ذلك الأبحاث الغربية حسب عبد الله العروي،[٥] والتي تعزوها إلى قلة الماء، لكن كتابات الجغرافيا والرحلة، تؤكد أن الماء موجود في الصحراء، والحصول عليه لم يكن بالأمر الشاق، وأن أبعد مسافة في الصحراء، بين موردين للماء قد توجد على مسافة ثمانية أيام حسب البكري،[٦] وهي إما أن تكون في شكل آبار لا يتعدى عمقها بضعة أمتار أو عيونًا جارية أو آبار يندفع منها الماء إلى سطح الأرض،[٧] أو تكون في شكل فقاقير جمع فقارة، خاصةً في منطقة توات، حيث اختلف مؤرخو المنطقة في فترة إنشائها والعناصر السكانية التي ابتدأت بحفراها، وفي ذلك يورد الباحث مقدم مبروك، إحدى عشرة فرضية لإنشائها، اعتمادًا على المصادر المخطوطة في المنطقة.[٨] إن ما يهمنا في السياق هو مساهمة الفقارة في انسيابية الحركة القوافلية باتجاه الجنوب والشرق، عبر واحات تمنطيط، وكورارة، وتيدكيلت.

يشكل مجال صحراء المغرب الأوسط منطقة عبور رئيسة بين الأطراف المغاربية والمتوسطية والسودانية، وإن طرح مشكلة ندرة الماء في صحراء المغرب الأوسط كعامل معطل للارتياد، تفنده الكتابات التاريخية المصدرية، فضلاً عما تحلى به التجار من كفاءة، تجمع بين الجرأة والحذر والمغامرة والتروي والشجاعة؛ فكانت الصعوبات نقاط تقوية للتجاوز وبلوغ المقاصد.

(٢) المقاطع الصحراوية من مسالك ومفاوز المغرب الأوسط

إن تموضع قرى وواحات المغرب الأوسط على خط سير القوافل بين السواحل شمالاً، ودواخل الصحراء إلى مشارف السودان الغربي جنوبًا من جهة، وبين سجلماسة ودرعة غربًا إلى فزان وأوجلة شرقًا من جهة ثانية، جعل منها فضاء للعبور والتموين، للقوافل التجارية والحجية، مما جعلها مجالاً للبناء والنشاط الاقتصادي والاجتماعي في صحراء المغرب الأوسط.

الطرق التجارية العابرة لصحراء المغرب الوسط، عرفت انتعاشًا ابتداءً من القرن (٢هـ/٧م)، بفضل حركية بعض التجمعات العمرانية، في اتجاه التعامل مع الجوار أكثر من ذي قبل، وساهم الامتداد المذهبي، في إنشاء واحات جديدة أو تنشيط بعضها على يد الجماعات الاباضية، كغرداية وورجلان، كما اختطت زناتة قصورًا لها مثل بودة وتمنطيط وتسابيت ثم تيكورارين، إلى أن استولى علها عرب المعقل ووضعوا الإتاوات على أهلها.[٩] هذه الطرق شكلت أجراء مهمة من مسارات عالمية، ربطت أسواق المغرب الأوسط والسودان الغربي بحوض المتوسط، خاصةً مع حالة اللاستقرار التي عرفها الطريق الغربي، الممتد من فاس إلى أودغشت، قبيل سيطرة السعديين على مراكش. وتتمثل هذه الأجزاء من الشمال إلى الجنوب، فيما يلي:

- الطريق من تلمسان إلى توات ثم إلى تنبكت وأكدز أو تغازا.[١٠]
- الطريق من تكرت وورجلان إلى جاو ويتصل هذا الطريق بموانئ المغرب الأوسط.

وهناك مفاوز، تربط شمال المغرب الأوسط بجنوب الصحراء:

- الطريق من توزر وغدامس إلى صحراء الأهجار ثم إلى فقاو، لكن هذا الطريق حسب الجغرافيين قليل الفائدة لعدم وجود محطات تجارية أخرى، تمكن القوافل من التبادل، لذلك لم يكن مطروقًا بشكل كبير من طرف التجار.
- الطريق من غدامس إلى أودغشت وغانة وغيارو وكومبي صالح وتادمكت، عبر ورجلان وتوات.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

حظي هذا المقطع بتوصيف شامل من لدن جغرافيي القرن (١٠هـ/١٦م)، ورحالة القرن (١١هـ/١٧م)، مثل العياشي، الذي أسهب في تعداد قراه، ووصفِ مسالكه وأسواقه بمعاينة مباشرة سنة ١٦٦١م، فأول قرية ذكرها على هذا المسار من صحراء المغرب الأوسط، قرية إيجلي وهي أول قرى وادي الساورة، ثم نزل الركب الذي كان يقله، بقرية مازر، ثم قرى بني عباس الثلاث، وبشير إلى أن وصلت القافلة إلى منطقة يقال لها فم المدفع حيث يلتقي هذا الطريق بطريق صابر التي تقطع الحمادة، ثم يعدد القرى التي على طريق الساورة باتجاه توات، كبني يخلف، زاوية سيدي أحمد بن موسى، إلى أن نزلت القافلة للمبيت على ماء تمغارن، وبمقابلها على الضفة اليسرى لواد الساورة، توجد قرى أولاد رافع.

تمثل قرى أولاد رافع حسب العياشي، آخر حدود منطقة الساورة، ليبدأ إقليم توات بقرى تسابيت، حيث تتجمع القوافل الآتية من بلاد السودان (تنبكت وأكدز)، والقادمة من المغرب، ثم اتجه الطريق يسارًا إلى بلاد أوكروت من بلاد تيكورارين، ثم إلى ورجلان مرورًا بوادي إيمكيدن، ومن ورجلان إلى قاعدة وادي ريغ تكرت، ثم إلى سوف، التي تشرف على بلاد نفزاوة.[١١] يتضح من كلام العياشي عن هذا الطريق الذي يربط جنوب غرب المغرب الأوسط، بشمال شرقه، أن أغلب أجزائه هي بمحاذاة الأودية الصحراوية كواد الساورة، ومسعود وواد الحناء، وصولاً إلى واد ريغ عبر وادي مقيدن، كما أن هذا الطريق كان مطروقًا بشكل كبير خلال القرن (١١هـ/١٧م)، خاصةً من طرف قوافل الحجيج، وأغلب ما يميز هذا الطريق كثرة واحاته فضلاً عن تردد الأعراب على أسواقه.

(٣) الحرف والمهن المرافقة لمسالك القوافل

لم تنشط التجارة عبر الصحراء رغم صعوباتها، إلا مع الأرباح المترتبة عن هذه المغامرة، أو لأداء فريضة الحج، بسبب أخبار الركبان عن المسالك، وما دونه الرحالة والجغرافيون عن الصحراء ومسالكها؛ فكانت كتاباتهم خرائط توجيهية، ولوحات ترسم عادات المجتمعات المتمركزة في نقاط التوقف، حتى أصبحت اتجاهات الطرق ومراكزها والأبعاد بينها معلومة. هذه المعطيات الجغرافية والاقتصادية والمجتمعية، تمثل زادًا معرفيًا أو ما يمكن أسمية "دعم نفسي ومعلوماتي"، الذي يشجع مرتادي المسالك على خوض المغامرة والتمتع بصعوباتها، إلى جانب هذا الدعم نجد دعم لوجستي، منه ما هو في ذاتية القافلة وتشكيلتها، ومنه ما تتقوى به في المراكز الصحراوية، لدعم طاقتها على الحركة في الفيافي، وعليه فالقوافل بحاجة إلى مرافقة داعمة وهي تلك الحرف والمهن المتوفرة في المراكز، ومرافقة دائمة، وهي التي تساير الركب في حله وترحاله.

١/٣- المرافقة الداعمة:

تمثل هذه المرافقة عادة، ما تتغذى به القوافل عندما تحط رحالها في المدن والقرى الصحراوية، لذلك نجد القوافل تتحمل المشاق وتتقدم ببطء في اتجاه المراكز، حيث تتدعم بكل ما تحتاجه لاستكمال مسيرها. فالقوافل القادمة من تلمسان وفاس، باتجاه تمبكتو ستأخذ الطريق المار بتوات بحثًا عن الأمن، الذي افتقده الطريق الصحراوي الغربي، الذي يمتد من ناحية السوس إلى ولاتة، لكثرة غارات الأعراب على سابلتها؛[١٢] فلذلك يعتبر الأمن العامل الأول المتحكم في تحديد مسار القافلة ومكان نزولها.

تعتبر توات أعظم المراكز الصحراوية على الطريق الصحراوي الأوسط ذات نخيل وأشجار وعيون، تبعد عن سجلماسة ثلاثة عشر يومًا، ولأول السودان عشرون يومًا، ولبلاد الزاب عشرة أيام، تتكون من مئتي قصر خلال القرن (١١هـ/١٨م)، أوسطهما تمنطيط وبودة وتيمي.[١٣]

حفل إقليم توات بتوصيف من لدن الرحالة والجغرافيين والمؤرخين، لموقعه الاستراتيجي ولتمتعه بأنشطة حرفية ومهنية داعمة للقوافل التجارية؛ فهو حسب ابن خلدون بلد متبحر في العمران، ومنطقة تجمع القوافل المترددة من المغرب إلى السودان الغربي،[١٤] وحسب الفشتالي "أوسع وطنًا وأفسح مجالاً وأقرب للسودان اتصالاً وجوارًا وإلى قطر تيكورارين، وهو أعظم اشتهارًا وأعرف نقيبًا وأشد شوكة وأحسن جانبًا وأعظم أقاليم المغرب وأكثرها أممًا وأفسحها خطة، انتظم عمرانه واتصلت نخيله وتراصفت قصوره على مسافة ثلاثين مراحلة أو أكثر".[١٥]

هذه المؤهلات جعلت من توات مجالاً جغرافيًا وطبيعيًا ممتازًا وفق معطيات الصحراء، وانعكست هذه الأهمية على الساكنة، لارتباط أنشطتهم بخدمة القوافل التجارية؛ فسكان توات أغلبهم أغنياء، لأنهم اعتادوا الذهاب كثيرًا بسلعهم إلى السودان على حد تعبير الوزان، ومن مظاهر هذا الغنى أن فرضت عليهم مؤنة القاضي أبي يحي بن محمد من طرف السلطان سنة ٨١٥ هـ، بـ (٥٠٠) مثقال عينًا.[١٦]

كان مركز توات يقدم دعمًا كبيرًا للقوافل، فأسواقها عامرة بالمنتجات الفلاحية من تمر وعنب وشعير والقمح، فضلاً عن بعض المنتجات الحرفية كالبرانس والحياك،[١٧] والقرب والنعال الجلدية وغيرها، وأدوات مصنوعة من سعف وجدوع النخل، زيادة على المنتجات الرعوية مثل لحم الجمال، والشحم المالح، الذي يأتي به التجار من فاس وتلمسان ويلقى رواجًا كبيرًا بأسواق المنطقة.[١٨]

فضلاً عن التجارة الخارجية لإقليم توات مع الجوار، فقد عرفت قرى الإقليم تجارة بينية "داخلية"، تنشطها القبائل، مثل قبيلة عبيد الله من عرب المعقل، في تجارتها بين توات وتنطيط،[١٩] وقبيلة "أدوغ" البربرية برقان، التي كانت تأتي بالرقيق وعروض التجارة من بلاد التكرور، وتمر على القرى التواتية؛ فتبيع الرقيق والعروض وتمضي إلى الدغامشة والزروي وتيكورارين، وتشتري الكسوة وترجع بلدها.[٢٠]

كما اشتهر سكان المنطقة بإكرام الضيف ومن جملتهم ركب القوافل، فقد كانوا يجدون كل الترحاب من التواتيين وغيرهم من ساكنة المراكز الصحراوية (وأكثر بربر المغرب الذين من سجلماسة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

إلى السوس... إلى نواحي تيهرت وإلى... تنس والمسيلة وبسكرة وطبنة... يضيفون المارة ويطعمون الطعام)،([٢١]) لذلك قلت إن لم أقل انعدمت بها الفنادق، فأهل المنطقة كانوا يؤون الغرباء في منازلهم بدون أجر، ولا يمسونهم بسوء.[٢٢]

ويذكر صاحب كتاب "نسيم النفحات"، أن ظاهرة إطعام وإيواء الغرباء أصيلة في المجتمع التواتي، وعادتهم في ذلك، إذا توفرت الزاوية في القصر؛ فإن المسافر يقصدها، حيث يجد كل ما يحتاج إليه، حتى علف دابته، وإن لم تكن بالقصر زاوية؛ فإن أهل القصر لهم عادة، أن لكل واحد منهم نوبة ولا يتخلف عن النظام عندهم ولو طال مقام الضيف بالزاوية؛ فإن ضيافته بمَنْ معه ستبقى مستمرة إلى حين ترحاله،[٢٣] وتتمثل موارد الزاوية إما من الأحباس أو التجارة، حيث كان لزاوية علي بن أحنيني تسعمائة جمل تتجر مع بلاد السودان.[٢٤]

توجد شمال توات مراكز للقوافل على طول وادي الساورة وكير، منها قصور بني قومي، وواكدة، بها أسواق داعمة للقوافل، حيث يبيعونهم الخيل التي يسوقوها أهلها من فاس، ليبيعها التجار إلى ملوك السودان الغربي، وكبار الموظفين بأثمان مرتفعة،[٢٥] فضلاً عن قرى وادي الساورة التي ذكرها العياشي منها الغابة، وهي مجموعة من القرى المترابطة فيما بينها بواحات النخيل حتى تَتَرَاءى للناظر من بعيد كأنها سواد، لذلك نعتها العياشي بالغابة، التي كانت تقصدها العرب والقوافل للميرة.[٢٦]

اشتهرت بعض المراكز مثل توات بحرفة الصرافة، نظرًا لارتباطها بأسواق السودان وقربها منها، وشهدت أسواق الذهب بتوات خلال النصف الثاني من القرن (١١هـ/١٧م)، هبوطًا مقارنةً بالأسواق المجاورة، حيث يذكر العياشي أن الحجاج الذين كانوا بمعيته أخروا الصرف إلى توات لأنه أرخص من تافيلالت حيث بيع المثقال بـ أربع وعشرين موزونة.[٢٧] كما عرفت بعض المراكز مثل ورجلان بصك العملة، باستعمال الذهب القادم إليها من السودان "ورجلان مدينة فيها قبائل مشرفون وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى غانة فيخرجون منها التبر ويضربون في بلادهم السكة باسمهم"،[٢٨] ومنه نؤكد ما جاء به الباروني من أن ورجلان تحتل المركز الريادي في قيادة قوافل التجارة إلى بلاد السودان.[٢٩] كما عرفت حواف هذه المراكز حرفة الرعي، التي أمتهنها الأعراب، وهم يغدون بمنتجاتها الأسواق المجاورة، بالسمن واللحم والوبر والصوف اللازم لصناعة الخيم والملابس، مثل ورجلان التي كانت كثيرة الصناع وسكانها أغنياء،[٣٠] حيث نشطت هذه الحرف المرتبطة بالمواد الأولية المحلية من جهة، والمنتوج الموجه لتجار القوافل من جهة ثانية.

كثيرًا ما نعت الوزان أسواق المراكز الغربية من صحراء المغرب الأوسط، بقلة المنتجات الحيوانية من لحوم وسمن، لكن نجد العياشي يشيد بالمراكز الصحراوية الوسطى والشرقية، مثل ورجلان وبسكرة، في توفير هذه المنتجات وبأثمان رخيصة،[٣١] وأسواق تكرت وبسكرة، توفر لهم تمر من أطيب الثمار، حتى أن كل عشر تمرات من تمر بسكر بيعت في أسواق تنبكت بخمس ودعات،[٣٢] لأن بلاد السودان حسب البكري، خالية من التمر، إلا ما يأتيها من بلاد الزاب، عن طريق تجار وركلان،[٣٣] ويجد تمر بسكرة كذلك رواجًا بأسواق تونس وبجاية،[٣٤] كما توفر ورجلان للقوافل التجارية الذاهبة للسودان الحنطة، إذ يقول الحميري عندما يتحدث عن تنبكت" وأكثر ما يزرعون الذرة، وربما جلبت الحنطة إليهم من بلاد وركلان وغيرها".[٣٥]

لقد كانت الحرف والمهن المنتشرة في المراكز الصحراوية داعمة للقوافل، رغم محدودية تنوعها، بحكم الموارد المتوفرة؛ فكانت حرفة الزراعة والرعي أهمها، بما توفره للقوافل من احتياجات ضرورية، مع عروض مقبولة للمنتجات الحرفية، تساهم في تنوع البضائع المسوقة في السودان الغربي، بينما الجوانب الخدماتية بهذه المراكز كالفندقة والمطاعم، فلا تذكر لنا المصادر -على الأقل ما توفر لدينا- عناها شيء، وهذا لاعتبارات سبق طرحها.

٢/٣- المرافقة الدائمة (المسايرة):

إلى جانب المرافقة الداعمة، نجد حرف ومهن لصيقة بالقوافل في حلها وترحالها، ولا تكاد تخلو قافلة منها، وبالتالي فهي دائمة طالما القافلة تسير، حيث تحافظ على أمن وخط سير القافلة، وتقدم لها الخدمات. كانت القافلة الواحدة عبارة عن مدينة متحركة، فيها المؤذن والإمام والقاضي والشيخ والرئيس، كل مجموعة من هؤلاء يتكون مجلس القافلة، ومن بينهم ينتخب شيخ القافلة، كما كان بالقافلة الحراس والفنانون والمغنون والمصرفيون والتجار والسياح والحجاج والمتسكعون والمتجولون، والكثير من أخلاط الناس والمهن، وتدل المعطيات أن القافلة لم تكن عربة تحمل البضائع فحسب، بل تمثل في ذاتها شبكة اجتماعية متكاملة ووعاء ناقل للحضارة متفاعل داخليًا وخارجيًا، ويمكن أن أصف القافلة أنها شركة ذات مهمة محددة ووجهة معروفة، يضبطها قانون يسهر على تنفيذه مجلس القافلة، برئاسة "شيخ القافلة".

تتمثل مهمة رئيس الركب، في التفاوض مع سلطات المناطق التي تعبرها القافلة، حيث يذكر الوزان أن شيخ القافلة التي كان بها فاوض الطوارق ودفع لهم إتاوة المرور، وهي لا تتجاوز قطعة قماش تساوي دينارًا على كل حمل جمل،[٣٦] كما أنه يؤمن للقافلة سلوك أيسر المسالك، وفي ذلك يقول العياشي: "كان رحيلنا من ... تيكورارين... وأخذنا على طريق واد إيمكيدن ومعنا رجل من الخنافسة إكتراه أمير الركب يدلهم على الطريق"،[٣٧] كما قد يترك أمير الركب واحدًا من أصحابه، ليدل من تأخر ليلتحق بالركب. وما يهمنا في هذه الورقة تلك الحرف والمهن التي تسهر على قيادة القافلة وإصلاح أعطابها.

تشير كتب الرحالة والجغرافيين، أن بالقافلة وكلاء أو دلالين، وهم وكلاء للبائعين يتعهدون السلع والبضائع من أصحابها لبيعها لهم في أسواق أخرى مقابل أجرة كما كان يفعل سكان واكدة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وتبلبالت، بإرسال بضاعتهم التي أغلبها من تمر، فضلاً عن الخيول مع التجار الذاهبين إلى أسواق السودان الغربي.[٣٨] إلى جانب الوكلاء ، يشكل الدليل أو المرشد أو المخبر ، بوصلة القافلة، إذ بدونه تتيه القافلة في الفيافي، فقد حصل مع ركب العياشي، أن أحدًا من أفراد القافلة تاه بنواحي الأغواط، فوجده الدليل راجعًا من حيث جئنا، وهو تائه يظن أنه متوجهًا نحو المغرب، وقد تتسبب الأمطار في ضياع الأثر وعدم وضوح الرؤية للمخبر، فينحرف عن الطريق إلى مسالك وعرة وأودية، حينها تتوقف القافلة حيث هي، ويذهب أمير الركب والمخبر لالتماس الطريق،[٣٩] وقبله يشير ابن خلدون أن المفازة التي بين تمنطيط وبلد مالي لا يهتدي فيها السبيل إلا بالدليل الخبير من الطوارق.[٤٠]

وكانت بعض القبائل العربية تقوم بمرافقة القوافل بغرض حمايتها من الإغارة، والتوجيه، حيث بعث أمير الركب الذي كان فيه ابن مليح (١٠٤٠-١٠٤٢هـ/ ١٦٣٠-١٦٣٣م)، إلى وفد جراوة لمرافقتهم لقطع البيداء "فالتقينا بهم بخنك وادي الساورة...وسرنا مع وفد الجراوة لقطع البيداء... حتى قدمنا تبلبالت".[٤١] كما تضمنت القافلة عمالاً، الذين توكل لهم مهام، كتسوية الآبار المعرضة للردم بسبب الزوابع الرملية، حيث يقوم العمال بترميمها من الداخل بواسطة عظام الإبل الهالكة، ثم يغطونها بجلودها، ومن ضمن هؤلاء العمال من يرحل مع القوافل بحثًا عن العمل والثراء خارج وطنه، حيث يذكر الدالي في كتابه "التاريخ السياسي"، أن بعض من الذين كانوا يعملون في استخراج الملح بـ "تغازا" هم من خارج البلدة، حيث يأتون مع القوافل كمنجميين.[٤١]

ولأن هذه القوافل تجتاز إطارها الحضاري، إلى مناطق وحضارة ومجتمعات أخرى، تتكلم لغة غير لغة سكان صحراء المغرب الأوسط، لذلك فهي بحاجة إلى أن يكون ضمن طاقمها مترجم، يعرف لغة الأقوام الذين سيتعاملون معهم خاصةً بأرض السودان، حيث يؤكد الوزان أن القافلة التي كان فيها وصلت إلى أرض السودان، وقام أميرها بإكرامهم (رغم أنه لا يفهم لغتنا ولا نفهم لغته) على حد قول الوزان، وكانت المحادثة مع الأمير السوداني، بواسطة ترجمان.[٤٢]

ويشكل الجمالون عنصر مهم في القافلة، بحكم إقامتهم واقتيادهم لدواب القافلة وأكثرها طبعًا الجمال لذلك سموا بالجمالين، - وهم غير التجار-، ذلك ما يفهم من رواية الوزان عندما تمت دعوة الركب الذي كان فيه من طرف أحد أمراء السودان، لكن التجار رفضوا الدعوة بحجة بعد مقر إقامة الأمير عن الجادة، لكن حرص الأمير على استضافتهم اقترح عليهم أن يتابع الجمالون السفر مع الدواب، ويصحبه التجار.[٤٣] إن التجارة عبر الصحراء لم تكن تخضع للفوضى وحالة اللانظام، بل المتمعن في حيثياتها يكتشف مدى حرص التجار على تقدير العواقب، وعلى عمق التنظيم، بما يكفل الحفاظ على النفس البشرية والبضاعة التجارية.

خاتمة

وفي الأخير نخلص إلى الاستنتاجات التالية:

- أن صحراء المغرب الأوسط، رغم قساوة طبيعتها وامتداداتها الجغرافية، شكلت مجالاً للتواصل الحضاري بين السواحل والدواخل.
- المقاطع الصحراوية، ومراكزها مثلث الرئة التي تتنفس منها القافلة التجارية والحجية، كما أن أغلب المقاطع اتخذت مسارها بجوار نقاط الماء.
- الحرف المهن المتمركزة في المدن والقرى، ساهمت في ثراء ساكنتها، ودعمت وأثرت بضاعة القوافل، لاسيما المتوجهة إلى السودان الغربي.
- القافلة كانت مدينة متحركة، تحمل كل ما تحتاجه خلال سفرها، الذي يمتد لأشهر، ويسهر ركبانها كل حسب وظيفية على إنجاح مهمتها، والعودة بما قل حمله وغلا ثمنه.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهَوامِشُ:

(١) زنيبر، محمد. **تجارة القوافل في المغرب**. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٤: ص ١٦١.

(٢) زنيبر، محمد. المرجع السابق: ص ١٦١ – ١٩٠.

(٣) طرخان، إ ع. **البرتغاليون في غرب إفريقيا**. القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٧.

(٤) دونالد، و. **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء**. نيويورك. ١٩٦٢. بدون دار النشر. ص ٢٥

(٥) العروي، عبد الله. **تاريخ إفريقيا العام**. اليونسكو. ج١: ص٣٣١.

(٦) البكري، أبو عبيد. (بدون تاريخ الطبع). **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**. طبعة حجرية، ص ١٦٣-١٦٤.

(٧) ابن خلدون، عبد الرحمن. **تاريخ ابن خلدون**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة. مراجعة: سهيل زكار. دار الفكر: بيروت، ٢٠٠٠: ص ٧٨.

(٨) مقدم، م. **تغير البنيات الزراعية في المجتمع التواتي**، ط١، الجزائر ، دار هومة. ٢٠٠٨: ص ص ٣٣ ٤٧.

(٩) السلاوي، الناصري. **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**. الدار البيضاء: دار الكتاب. ١٩٥٥: ص ١٥٩.

(١٠) الوزان، الحسن. **وصف إفريقيا**. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلام. ١٩٨٣: ص ١٣٣/ كعت، محمود. (ب. ت)، تاريخ الفتاش، ب. مكان الطبع: ص ١٨.

(١١) العياشي، أبو سالم، **الرحلة العياشية (١٦٦١-١٦٦٣م)**، حققها وقدم لها: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي. دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة. ٢٠٠٦: ص ص ٧٦ - ١٢٣.

(١٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٧: ص ٧٧.

(١٣) ابن عبد الكريم، محمد، **كتاب درة أقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام**، مخطوط خزانة كوسام ولاية أدرار، الجزائر: الورقة، ١.

(١٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٧: ص٧٧.

(١٥) الفشتالي، عبد العزيز. **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**. (ب ت). دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية. المغرب: ص ٧٣.

(١٦) ابن عبد الكريم، م. مخطوط: الورقة، ١٨.

(١٧) باي بالعالم، محمد. **الرحلة العلية إلى منطقة توات**، ٢٠٠٥، مطبعة دار هومة: ص٦٤.

(١٨) الوزان، مصدر سابق، ج٢: ص١٣٤.

(١٩) ابن خلدون، مصدر سابق، ج٧: ص٧٧.

(٢٠) ابن عبد الكريم، م، مخطوط: الورقة ٤٩.

(٢١) ابن حوقل. أبو القاسم، **كتاب المسالك والممالك**، ١٨٧٢، مطبعة بريل، مدينة ليدن: ص ٩٢.

(٢٢) الوزان، مصدر سابق، ج٢: ص١٣٤.

(٢٣) الطاهري، أحمد، **نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء والثقات**. ٢٠٠٠.حققه وعلق عليه: عبد الله الطاهري، بدون مكان الطبع : ص٦٠.

(٢٤) ابن عبد الكريم، م، مخطوط: الورقة ٤٩.

(٢٥) الوزان، مصدر سابق. ج٢: ص ١٣٠.

(٢٦) العياشي، مصدر سابق. ج١: ص٧٨.

(٢٧) العياشي، المصدر نفسه. ج١: ص٨٠.

(٢٨) الإدريسي، ش. **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. ١٨٦٣. مطابع بريل: مدينة ليدن: ص٧٣.

(٢٩) الباروني، سليمان. **الأزهار الرياضية في ملوك الإباضية**، ب. ت، ص ٨ – ٩.

(٣٠) الوزان، مصدر سابق ج٢: ص١٣٦.

(٣١) العياشي، مصدر سابق.ج١: ص١١٤. ج٢، ص ٥٤٠.

(٣٢) كعت، محمود. مصدر سابق: ص٢١٩.

(٣٣) البكري، مصدر سابق: ص ٥٢.

(٣٤) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل. **تقويم البلدان**. ١٨٣٠.اعتنى بتصحيحه وطبعه: البارون ماك كوكين ديسلان، طبع الطباعة السلطانية: باريس: ص ١٣٩.

(٣٥) الحميري، محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ١٩٨٤. حققه: إحسان عباس. مكتبة لبنان: ص٥١٤.

(٣٦) الوزان، مصدر سابق ج١: ص٦٠.

(٣٧) العياشي، مصدر سابق، ج١: ص١٠٧.

(٣٨) الوزان، مصدر سابق، ج٢: ص ١٣٢.

(٣٩) العياشي، مصدر سابق، ج٢: ص ٥٤٧ - ٥٤٨.

(٤٠) ابن خلدون، مصدر سابق، ج٧: ص٧٧.

(٤١) الدالي، الهادي المبروك. **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن ١٥ إلى بداية القرن ١٨**، ١٩٩٩، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة: ص٢٩٧.

(٤٢) الوزان، مصدر سابق. ج١: ص٦١.

(٤٣) الوزان، مصدر سابق. ج١: ص٦٤.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449